# أثر القرآن الكريم في شعرية مفدي زكريا

## ( دراسة في بعض النماذج الشعرية )

د. بيشي يمينة عجناك
-جامعة الجزائر-

لعل الإشكالية الجوهرية التي تسعى المداخلة لدراستها وكشف النقاب عن بعض جوانبها التي تتمحور حول: ما مدى أثر القرآن الكريم في نصوص مفدي الشعرية، وكيف تجلى أثر النص القرآني في شعرية مفدي في عناصر كثيرة منها؛ المعاني و القصص القرآني، والصورو اللغة القرآنية وذلك من خلال دراسة بعض النماذج الشعرية التي تعكس هذا الأثر.

### مصادر الثقافة التراثية عند مفدي

نشأ مفدي زكريا في بيئة دينية محافظة و تغذى منذ نعومة أظافره بمقومات الأمة العربية والإسلامية. وقد حرصت عائلته على تنشئتة تنشئة دينية كعادة كل العائلات في بني يز قن بواد ميزاب. و قد وجهه والده نحو الكتاب الذي تلقى فيه آيات القرآن الكريم و مبادئ علوم اللغة العربية ثم انتقل به في سن مبكر إلى عنابة ثم تونس لمواصلة الدراسة و التكوين، و خلال الدراسة و التكوين في كل المراحل أظهر مفدي قدرة فائقة في استيعاب تعاليم الإسلام في لغته و تفكيره و تعامله مع الآخرين. وقد قدم الدكتور محمد ناصر في ;كتابه مفدي زكريا شاعر النضال و الثورة

وقفات متأنية حول تكوين مفدي الديني في شتى المراحل التي قضاها في التعليم وما أورده الباحث في حديثه عن مدارس وادي ميزاب و ارتباطها الوثيق بالعقيدة الإيمانية في ظل الثقافة التي تلقاها في مسقط رأسه[1].

تغذى مفدي بهذا الرافد الأساسي في تكوينه الروحي و بالإضافة إلى الشيوخ الذين تلقى على أيديهم هذا التكوين ذو الأبعاد الدينية الخالصة؛ هذا التمسك بالعقيدة الإسلامية كثيرا ما أشار إليه من عرفه عن قرب و منهم الأستاذ أحمد سعيد المدير الأسبق لإذاعة صوت العرب بالقاهرة، الذي قال عنه «لعل من أبرز ما يميز شعره أنه واحد من الشعراء القلائل أكرمهم الله من خلال حفظهم الجيد لسور وآيات القرآن الكريم واستيعابهم لإعجازه اللغوي و بلاغته الربانية،و تضمينه لمفردات أبياته نصوصا قرآنية في سلاسة جمالية فائقة تبدو كقلائد ثمينة تؤكد و تقدس ما استهدفه من معان و تثري تمسك مفدي بهذه التعاليم التي تلقاها عن هؤلاء الشيوخ جعلت عين الإستعمار الفرنسي تراقبه وتلاحقه و تترصد تحركاته وخطواته المشبعة بالتربية الإسلامية»[2]

## المصادر التراثية في شعر مفدي

لا مناص لأي شاعر كان، وفي أي عصر كان من أن يرجع ويستعين بتراثه الذي ينتمي إليه، حتى وإن تعددت مشاربه الثقافية وإبداعاته الشعرية، فقد يجد نفسه مجبرا على الارتباط بتراثه- في بعض الحالات في زاوية من زواياه المتعددة ؛ ولما كان الجيل الذي شهد معه الشعر الجزائري الحديث بداية تطوره الحقيقي قد تخرج في مدارس الحركة الإصلاحية التي بينت لنا مكان القرآن الكريم في برامجها، فإنه من الطبيعي أن تكون لهذا الرافد آثار واضحة فيما ستجود به

1) د. محمد ناصر :شاعر النضال و الثورة ، المطبعة العربية غرداية 1984 ،ص70 ,

2) ينظر : أم سهام (عمارية بلال) تعاليم الأسلام في شعر مفدي زكريا ، موقع: أصوات الشمال06-08-2013 .

قرائح الشعراء الذين شبوا واستقام عودهم في هذه المدارس، خصوصاً أن هؤلاء الشعراء فهموا أن وظيفتهم الأولى في المجتمع وظيفة تهذيبية تربوية تهدف إلى النهوض بالأمة ومحاربة البدع والضلالات، التي كان يشجع عليها المستعمر ليبقى الشعب الجزائري يعيش في ظلمات الجهل، منقطع الصلة بالحياة كما هو منصوص عليها في كتاب الله عزوجل.[1]

ـ وضمن هذا المسار نجد أشكال التراث الديني المتنوع بدلالاته المختلفة، وطرق توظيفه عند الشاعر مفدي زكريا.فللوهلة الأولى نكتشف أن شعره والتراث يشكلان ثنائية متلازمة، وهذا من حيث براعة الشاعرفي استلهام التراث، منوّعا باستخدامه ومتعمّقا في دلالاته،فلقد كان بالنسبة إليه هو الينبوع الدائم المتفجر بأصل القيم ، والحصن المنيع الذي يلجا إليه كلما عصفت به العواصف، فيمنحه السكينة والأمن.

ـ إن المتتبع لشعر مفدي يكتشف رصيدا دينيا متعددا في دواوينه،حيث أن عملية الإبداع الفني عنده ارتبطت بالروافد الدينية ارتباطا وثيقا،بل وجدت فيه مصبا صالحا لاستعمالها، فالشاعر قد أفاض في هذا المجال باستعمال تقنيات التضمين والاقتباس من التراث الديني عامة والقرآن خاصة،مشكّلا بذلك ما يعرف بالتناص حسب المفهوم النقدي الحديث،فنحس وكأن هناك اتحادا وتزاوجا في الإحكام المتين والإعتماد الواعي فيما يفعله الشاعرفي إبداعاته الشعرية بين وضعياته الذاتية وبين اقتباساته ،إذ من خلالها تصبح التجربة الشعرية استعادة لمجموعة من النصوص القديمة؛ذلك أن المبدع لا يتم له النضج الحق إلا باستيعاب ما سبقه في مجالات الإبداع المختلفة[2] وقد اعترف

1) ينظر: عبد القادرهني، المعاني القرآنية، موقع منتديات تخاطب
ta5atub.com28/11/2012>22 فبراير 2011 - 7:01

2 ) ينظرأ. حجاب عبد اللطيف ، تقنية توظيف التراث الديني في شعر مفدي زكريا ،مجلة الأثر جامعة قاصدي مرباح – ورقلة- العدد السابع – ماي-0 200 ، ص 53 .

الشعراء الجزائريون أنفسهم بفضل القرآن في تكوينهم وبأثره في أشعارهم، وهو أثر تجلى في أكثر من عنصر من عناصر الشعر عند هؤلاء؛ فقد مس المعجم الشعري والصورة بأنماطها المختلفة والإيقاع والمعاني .[1]

## 1 - المعاني القرآنية في شعر مفدي

إن الموضوعات والمعاني القرآنية كثيرة ومتشعبة ويتعذر على الباحث الإحاطة بها جميعا، نكتفي بالإشارة إلى بعضها لا سيما التي اهتم بها الشاعر أكثرمن غيرها مستلهما ذلك من نصوص القرآن.

يدخل إنتاج مفدي زكريا الشعري دائرة التناص كاقتباس بشكل كلي ،إذ نلحظ تداخل الصياغة القرآنية مع النص الشعري حتى تكاد تسيطر عليه سيطرة كاملة ،بحيث لا تخلو قصيدة من قصائده من تلك المضامين الدينية المستمدة من القرآن أو الحديث أو من رموز التراث الديني عامة.[2] وضمن هذا المسار نجد أشكال التراث الديني المتنوع بدلالاته المختلفة،وطرق توظيفه عند الشاعر مفدي زكريا؛ فللوهلة الأولى نكتشف أن شعره والتراث يشكلان ثنائية متلازمة، وهذا من حيث براعة الشاعر في استلهام التراث، منوعا باستخدامه ومتعمقا في دلالاته،فلقد كان بالنسبة إليه هو الينبوع الدائم المتفجر بأصل القيم وأنصعها وأنقاها، والحصن المنيع الذي يلجأ إليه كلما عصفت به العواصف، فيمنحه السكينة والأمن[3]

ـ وعند تتبعنا لمحتوى دواوين الشاعر،وجدنا رصيدا دينيا متعددا في شعره،حيث أن عملية الإبداع الفني عنده ارتبطت بالروافد الدينية ارتباطا وثيقا.

1) ينظر ::عبد القادرهني ، المعاني القرآنية منتديات تخاطب 22<ta5atub.com28/11/2012 فبراير 2011 - 7:01

2 ) ينظر : أ. حجاب عبد اللطيف ، تقنية توظيف التراث الديني في شعر مفدي زكرياء ، ص 54و ما بعدها.

3) ينظر: ينظر : أ. حجاب عبد اللطيف ، تقنية توظيف التراث الديني في شعر مفدي زكرياء ، ص 53 و ما بعدها

ويستلهم طائفة من المعاني القرآنية ليحفز النفوس على الاستمساك بالدين والعمل بتعاليمه وتطبيق أحكامه وليحمَل الناس على عدم الخوف من أية قوة مهما كانت جبارة،

ـ في السياق نفسه يبين مفدي زكريا لإخوانه في فلسطين كيفية استرجاع أرضهم المغتصبة ظلماً وعدواناً، واستعادة حقوقهم المسلوبة، فيربط بين تحقيق هذه الغايات وبين طاعة المولى جلَّ جلاله وإخلاص العبادة له وحده، فنصرهم مرهون بنصرته العلي القدير، قائلا:

فإن تنصروا الله ينصركم +++ وينجز أمانيكم الغالية

ولن يخلف الله ميعاده +++ ولا ريب ساعتنا آتية[1]!

تبدو العلاقة واضحة بين المعاني المصوغة في هذين البيتين وبين قوله تعالى:

« حَتَّىٰٓ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ»[2] وقوله: «وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ» [3] . وقوله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ» [4] وتكشف الموازنة بين هذه المعاني الشعرية و القرآنية أن الشاعر كاد أن يعيد بعض هذه الآيات بنصها: فالألفاظ هي نفسها مع بعض التصرف الذي اقتضته قواعد النظم في نسج الأبيات، مرة أخرى نجد الشاعر في قصيدته( إلى الريفيين التي نشرها في لسان الشعب في ماي سنة1925) يشد أزر أبناء الريف المغاربة في حربهم ضد الاستعمار الإسباني، فلا يجد في شحذهم بروح البذل والتضحية في سبيل تحرير أرضهم ودفع الظلم عن أنفسهم أنسب من معنى الرعاية التي

1) مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ط2 1991،ص349 .
2 ) سورة الرعد، الآية:31.
3) سورة الروم، الآية:06.
4) سورة محمد، الآية: 07.

يحيط بها الله عباده المؤمنين بعينه التي لا تنام في جهادهم للكفر والطغيان، في قوله:

(بني الريف) لا بل بني الشرق جمعاً ++++ هلمُّوا فقد عَذُب المستقر

ففوقكـــــم عينُ ربّ خبـــــير ++++ تنـــامُ العيون ولا تنحسـر [1]

لاشك أن مفدي قد استلهم المعاني القرآنية في بيته الثاني في قوله عزَّ وجل: «ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ.» [2]. أما معنى الرعاية والنصر الإلهيين المفهوم من البيت فإن مرجعيته القرآنية جلية واضحة. وقد عمل الشعراء على تمتين صلة الشعب بربه وتقوية ثقته في نصره على عدوه، من هنا نجد صفات الله وأسماءه الحسنى، التي حفل بها القرآن الكريم، تتردد في كثير من القصائد .نجد هذه الخاصية في النداء الذي رفعه إلى أبناء الريف المغربي يحثهم فيه على ترك الخنوع والتخاذل والنهوض لكسر قيود الذل التي تطوق أعناقهم في قوله:

فإن سامحتكم ضمائركم ++++++ فإن المهيمن لا يغتفر [3]

كما نجده يستخدم لهذا الغرض بعض هذه الأسماء والصفات في قصيدة: «الاسلام يتكلم» في قوله:

على ذمّة القهّار ما أنا فاعل +++++ إلى مفرق الجوزا إلى السِمَاك العالي [4]

واللاّفت للنظر أن توظيف الشاعر كلمة (المهيمن) و( القهار )الغرض منه استنهاض الهمم وتحريك النفوس للثورة فهو بتذكيره مخاطبيه بأن «المهيمن». أي الله عزَّ وجل لا يرضى تقاعسهم وقعودهم عن بذل النفوس من أجل الحرية،

1) د. محمد ناصر :شاعر النضال و الثورة ، المطبعة العربية غرداية1984 ،ص 133 .
2) سورة البقرة، الآية:255.
3) المرجع نفسه (1).
4) المرجع نفسه .

فإنه يريد أن يوقد الشعور بالذنب والتقصير ، وهو معنى سيكون له من غير شك وقع شديد في النفوس التقية المؤمنة التي تعلم حق العلم أن غضب الله ليس بالأمر الهين مصداقاً لقوله تعالى: «**وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى**» [1]، و لا نحتاج إلى استعراض أمثلة كثيرة لنبين أن القرآن كان المصدر الأول لهؤلاء الشعراء في المعاني التي أدتها هذه الأسماء و الصفات في السياقات التي استخدمت فيها. فحسبنا في ذلك قوله تعالى في سورة الحشر: «**هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**» [2]

ـ ومن النصوص الشعرية المتداخلة مع السياق القرآني والمتضمنة للمعاني القرآنية قصيدته المعنونة « ألا إن ربك أوحى لها !!» قوله:

هـو الإثـمُ زلـزل زلـزالـها ++ فـزُلـزلـتِ الأرضُ زلـزالـها
وحمّلها الـنـاسُ أثقالهم ++ فـأخـرجتِ الأرضُ أثقالها
وقـال ابن آدمَ في حُمقـه ++ يسائلها سـاخـرا: مالها؟
فلا تسألوا الأرض عن رجّة ++ تُحاكي الجحيم وأهواله [3]

ـ ونوع ثان من المعاني القرآنية يستمده الشاعر من النص القرآني لا يقل أهمية عن السابق)هو (ليلة القدروما تحمل من رموز ودلالات أسماها فكرة الخلاص المنتظر، لذا فلا غرابة أن يتكرر توظيفها عند الشاعر إذ أن طبيعة الواقع والظروف هي التي فرضت ذلك يقول في قصيدته «سنثأر للشعب».

1) سورة طه، الآية: 81.
2) سورة الحشر، الآية: 22-23.
3) مفدي زكريا ، اللهب المقدس، 273.

سلوا مهجة الأقدار ..هل جرسُها دقا؟ +++ وهل خاطِر الظلماءِ عن سرّها انشقا؟
وهل ليلةُ القدر التي طال عمرُها +++ تنفّس عنها فجرُها يصدعُ الأفقـا؟
وهل كفّ هذا الدهرُ عن غُلُوائه +++ وأنصفنا هذا الزمانُ الذي عقـــا[1]؟

ونماذج اقتباس المضامين والمعاني القرآنية من القرآن كثيرةعند مفدي تكشف عن مدى تفاعل الشاعرمع النص القرآني، واستغلاله لصوره وعباراته، فبقدر انتشار الكثافة التناصية في شعر مفدي زكريا،بقدر ما تعدد الدلالات والسياقات حتى داخل النص الواحد،وهي قوة وبراعة في توظيف آيات القرآن لغة وتصويرا دون أن يكون ذلك تكلّفا وافتعالا بل أصبحت لغة القرآن تُداخِل لغته الشعرية تعبيرا وتصويرا ،مما جعل هذا التوظيف طابعا يكاد يتميز به شعرمفدي زكريا ويدل عليه ـ على حد تعبيرالباحث محمد ناصر.[2]

## أثرالصور القرآنية في شعرمفدي:

نجد اهتمام الشعراء بهذه الظاهرة "التناص مع القرآن" لأن القرآن يضفي على الصورة الشعرية طابعا من الحيوية والأصالة، أما عن علاقة شعرمفدي زكرياء بالقرآن نجد أن هذا الشاعر قد أولاه اهتماما كبيرا، فوظف تعابيره في نصوصه الشعرية حيث "كلما يريد التعبيرعن قدسية شيء ما أو عظمته في نفسه قارنه بالقرآن، إحساسا منه أن القرآن يمثل في نفسه نهاية السمو الذي لا نهاية بعده"[3]

ـ إذا تأملنا شعرمفدي زكريا نجد أنه قد أكثرفي توظيف هذا النوع التناصي، حيث يستقي مادته الفنية من الصور القرآنية "فيجد الشاعربين الصورة التي

1) المصدرنفسه ،ص 198.
2) ينظر : محمد ناصر :شاعرالنضال والثورة ، ص.70 وما بعدها .
3 ) محمد ناصر: مفدي زكريا شاعرالثورة، ص 107.

يريد رسمها والصورة الموجودة في القرآن الكريم تشابها في الدلالة الفكرية أو الفنية، ولكنه مع ذلك لا يوردها بنصها الحرفي وبصيغتها التعبيرية الواردة بها في الأصل القرآني، وإنما يشير إليها من خلال أبياته إشارات فنية يستطيع المتلقي إدراكها اعتمادا على الذوق والمعرفة"[1].

هكذا قد أصبح التفاعل بين النص القرآني وشعر مفدي زكريا قد حقق مفعوله.

سوف نحاول استدعاء بعض الصور القرآنية التي وظفها الشاعر في نصوصه لإيصال المعاني والدلالات للمتلقي حيث يظهر استحضاره للآية القرآنية في قصيدته "الذبيح الصاعد " عندما تحدث عن الموت على أنه قضاء وقدر فيقول:

"واقض يا موت فيّ ما أنت قاض +++ أنا راض، إن عاش شعبي سعيدا"[2]

استحضر الشاعر في هذه الأبيات آية قرآنية قال تعالى: **"قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا "**[3] .

يواصل الشاعر اقتباسه من الآيات القرآنية واصفا شموخ أحمد زبانا وهو بين جلاديه قائلا:

زعموا قتله... وما صلبوه، ليس في الخالدين، عيسى الوحيدا ![4]

إن تشبيه وتصوير "أحمد زبانا" بمثابة سيدنا "عيسى عليه السلام" مقتبس من الآية القرآنية:**"إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا**

1) محمد ناصر: مفدي زكرياء، ص117.
2) مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 10.
3) سورة طه، الآية: 72.
4 ) مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص11.

**صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا** "[1]،حاول الشاعر إسقاط هده الحادثة على العدو الفرنسي الذي اعتقد أنه قتل"أحمد زبانا" لكنه في الحقيقة ذكره خالد لم يمت فذكراه لا تزال حية في الأذهان واستخدم الشاعر أفعال ماضية (زعموا، صلبوه) ليشير إلى مدى التناسق الموجود بين البيت الشعري والآية القرآنية التي وظفها، وبذلك تحقق التناص الاقتباسي في هذا البيت الشعري بصورة رائعة.

ويتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن الثورة التحريرية والأوضاع التي عاشها الجزائريون في هذه الفترة فيقول:

تنزل روحها، من كل أمر بأحرار، قد أهابا[2]

استحضر الشاعر قوله تعالى:" **تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ(4)سلام هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ(5)**"[3]

لقد جعل الشاعر"القرآن" العنصر الذي يرتكز عليه شعره ففي كل مرة يقتبس آية قرآنية تخدم غايته الشعرية وتكسب نصه معنى جديدا متجددا.

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن الثروة الموجودة في الصحراء قائلا:

"وهزت مريم العذرا نخيلا فأسقطتِ الفلوذج والرضابا

عراجنُ، كالمجرّة مشرقاتُ عسالِجُها، انسكبن بها انسكابا"[4]

1 ) سورة النساء، الآية:157

2) مفدي زكرياء: 34

3 ) سورة القدر، الآية:4،5

4 ) مفدي زكرياء : اللهب المقدس، ص 37

يدعو الشاعر الشعب الجزائري للدفاع عن الوطن بكل الطرق الممكنة حتى وإن افتدوا بأرواحهم، فالاستشهاد في سبيل الله هو الغاية لتحقيق أمنية الإنسان وهي دخول الجنة فيقول:

"من يشتري الخلد؟ إن الله بائعه  فاستبشروا وأسرعوا، فالبيع محدود"[1]

اقتبس هذا البيت الشعري من هذه الآية"القرآنية:

**« إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ "**[2]،وما نلاحظه في البيت الشعري هو ظهور اقتباس حرفي للآية القرآنية حيث اتخذ الشاعر ألفاظ ومعاني الآية ليضفي على نصه دلالة جديدة إلا أنها متشابكة ومترابطة مع الدلالة القرآنية.

ـ كما صور الشاعر ليلة اندلاع الثورة التحريرية مرة ثانية ليؤكد على هول وخراب البلاد ومعاناة الشعب قائلا:

هو الإثم، زلزل زلزالها  فزلزلت الأرض، زلزالها
وحملها الناس أثقالها  فأخرجت الأرض أثقالها
وقال ابن أدم في حمقه  يسائلها ساخرا، مالها؟؟
ألا إن إبليس أوحى لكم  ألا إن ربك، أوحى لها![3]

1) مفدي زكرياء :اللهب المقدس، ص 130
2 ) سورة التوبة، الآية:111
3 ) مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص89

لقد صور الشاعر الأوضاع المزرية الذي مست "الأصنام" مدينة "الشلف" حاليا فأشار إلى سورة الزلزلة التي كانت أكثر تعبيرا عن هذا الوضع المزري قال تعالى: "**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا(1) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا(2)وَقَالَ الإِنسَانُ مَالَهَا(3)يوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(5)**"[1]

.لقد حافظ مفدي زكريا على بنية النص الأصلي حيث تطابق أسلوب نصه الشعري مع النص القرآني مع الإبداع على مستوى تشكيل معنى النص(هو: الإثم زلزل زلزالها، حملها الناس أثقالها) وهنا تظهر جماليات التناص الاقتباسي.

إن التناص بين النص الشعري، والسور القرآنية، لم يحدث على مستوى اللفظ والمعنى أو الصورة الفنية، وإنما كذلك على مستوى الإيقاع الشعري إذ تستحيل الفاصلة القرآنية لسورة الزلزلة قافية شعرية، وهذا الشكل من التناص نجده في العديد من النماذج الشعرية وهو يكشف عن تمكن النص القرآني في نفسية الشاعر وتقديسه له وقدرته على تمثله من خلال الإيقاع الشعري.

ـ أثر القصص القرآني في شعر مفدي زكريا

استدعى الشاعر مجموعة من الآيات القرآنية التي تجلي أثر القصص القرآني في شعره منها قصيدته" فلا عز...حتى تستقل الجزائر" هذا ما يبين تأثره بالمدرسة القرآنية :

ورثنا عصا موسى، فجدّد صنعها ++ حِجانا، فراحت تلقفُ النارلا السحرا
وكلّم موسى اللهُ في(الطور) خِفية ++ وفي(الأطلس الجبار) كلّمنا جهرا
وانطق عيسى الإنس، بعد وفاتهم ++ فألهمنا -في الحرب-أن نُنطق الصخرا

1 ) سورة الزلزلة، الآية: من 1 إلى 5

وكانت لإبراهيم بردا، جهنم، ++ فعلّمنا- في الخطب- أن نمضغ الجمرا"[1]

في البيت الأول يبدو الأثر الواضح للآية الكريمة: قال تعالى:" **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118)**"[2]، أما البيت الثاني فقد أشار إلى المعجزة التي حدثت لسيدنا موسى قال تعالى:"وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ من قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا(164)"[3] ، أما البيت الثالث فتحدث عن معجزة سيدنا عيسى قال تعالى:" وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49)"[4]

واقتبس الشاعر في البيت الرابع الآية القرآنية التي تتحدث عن حادثة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع الكفار قال تعالى:قلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69)"[5]

ـ في هذه الآيات الأربعة إشارة إلى قصص الأنبياء والأحداث التي تعرضوا لها، حيث استعاد الشاعر في مخيلته قصص هؤلاء الأنبياء و المعجزات التي حدثت لهم جميعا.

ـ اهتم الشاعر بقصص الأنبياء خاصة ما يتعلق بحوادث سيدنا موسى مع آل فرعون حيث نجده يستحضر في كل مرة مشهدا من هذه الحوادث قائلا:

1 ) مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 306
2 ) سورة الأعراف: الآية 117، 118
3) سورة النساء: الآية 164
4) سورة أل عمران: الآية 49
5) سورة الأنبياء : الآية 69

وحـداد في السـوق ألقى عصاه +++ أعلنها في الذرى والبطاح
كمثل عصاي..سألقي الفرنس +++ يس في البحر، أركلهم بالرماح[1].

تحدث الشاعر في هذين البيتين عن جرأة وشجاعة الشيخ الحداد عندما ألقى عصاه في السوق وسط الجمهور وذلك ليقنع للشعب الجزائري على عدم الاستسلام، ويصرح بقوله: "سنرمي الفرنسيين إلى البحر كما رميت هذه العصا على الأرض"[2] فالعبارة التي إستخدمها الشاعر "ألقى عصاه" مستوحاة من قوله تعالى: فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَده فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108)"[3].

فلا يكمن اكتشاف معنى هذه الأبيات الشعرية لو لم نعرف قصة سيدنا موسى عليه السلام، إذ أبدع الشاعر في تصوير مشهد كيفية إلقاء عصا الشيخ الحداد، فهنا قد قلب دلالة النص القرآني ليعطي نصه دلالة جديدة لكن الألفاظ مستوحاة من النص السابق.

لقد أثرت قصة سيدنا موسى في نفسية مفدي زكريا، إذ ذكر واستوحى مواقف عديدة وهذا ليبين مكانة قصص الأنبياء في التاريخ الإسلامي فيقول:

وشبت من ذرى(وهران) نار رآها(برج مدين) فاستجابا[4]

يستعين مفدي زكريا مرة أخرى بقصة سيدنا موسى عليه السلام لكنه هذه المرة يستدعي حادثة أخرى لم يسبق لها الذكر فوظف الآية القرآنية التي تشير إلى معنى ذلك البيت الشعري، قال تعالى: "وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى(9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ

1 ) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر ، ص 59
2 ) مفدي زكرياء: إلياذة الجزائر،ص59.
3) سورة الأعراف: 108-107.
4 ) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص 32.

هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13)"[1].

ـ استطاع الشاعر بخياله الواسع أن يصور مشهدا قرآنيا دون أن يحيل إلى تركيب أو ملفوظ وهذا ما أضفى على شعره دلالة قوية أكسبته رونقا وجمالية، في تصوير المشاهد وإبداعه في تقديم الصور الجديدة.

إن شخصيات الأنبياء كموروث ديني استحضره الشاعر في قصائده،قصد ربطه بدلالات أساسية لا تخرج عن نطاق فكرة الصراع والثورة وقصد الكشف عن حقائق ووقائع طالما استترت برداء زائف فرأى الشاعر تعريتها وكشف وجهها الحقيقي بطريقة تلميحية رمزية بعيدا عن المباشرة والتقريرية[2]

ودون الغوص في النماذج الأخرى المستمدة من التراث كشخصيات القادة والفاتحين التي كان الدين سببا في بروزها وخلودها أو أنواع المواقف التاريخية المرتبطة بالتراث الديني كبعض المعارك الشهيرة أو حتى الأماكن التي تكرر ذكرها كنوع من الاستعانة والاستمداد من التراث.

1 ) سورة طه، الآية: 13-9.

2 ) ينظر : أ. حجاب عبد اللطيف ، تقنية توظيف التراث الديني في شعر مفدي زكرياء ، ص 59..

**خاتمة**

نخلص في الأخير إلى بعض النتائج المترتبة عن أثر النص القرآني و التراثي في شعرية مفدي التي نلخصها فيما يلي:

_إن عملية استحضاره للتراث تمت بطريقة انتقائية ومركزة تخضع في ذلك لطبيعة الأفكار والمواقف التي أراد هاالشاعر، كما أن طريقة توظيفه لهذا التراث اعتمد فيها على الترميز والتلميح بعيدا عن الغموض المتعارف عليه في الشعر العربي المعاصر.

_ جاء التوظيف للنص القرآني في أغلبه في شكل اقتباس أو تضمين واستشهاد أخذ بذلك طابع التناص الذي اصطلح عليه في الدراسات النقدية المعاصرة.

- إن نوعية التراث المستعمل معظمه ديني وهذا يعود لأصالة الشاعر وتكوينه الخاص تجاوبا مع ثقافة المتلقي .

- لا نجد في شعر مفدي ظاهرة التناص فحسب أثناء توظيفه للتراث الديني، بل تعداه إلى استخدام الصورة الفنية المؤثرة .

- تم انزياح الشاعر للتراث الديني على وجه الخصوص بماله من خلفيات وترسبات داخل الذاكرة العربية، ولإثارة ذلك لجأ إلى المجاز بدل الحقيقية فمفدي كان أكثر صدقا وفاعلية في تعامله مع التراث العربي والإسلامي وهذا يعود لصدقه مع ذاته.

- إن الشاعر استطاع ببراعة تامة تضمين شعره الموروث الديني،ليجعله متناسبا والمعنى المراد تبليغه للمتلقي،وصولا للهدف المنشود وهو تفعيل الحس الثوري.

- استحضار السياقات القرآنية الكثيرة في نصوصه الشعرية من ذلك استعمال المفردات: تبارك، ، ليلة قدر، ألف شهر، القصاص، ذو الجلال، مطلع فجر،....وهذا يدل دلالة واضحة على رسوخ المنزع الديني لدى الشاعر ، وتبيين أثر النسج القرآني في أشعار الجهاد، والمقاومة.

- إن الحضور المكثف للسور القرآنية ومعانيها والتداخل الكبير بين المعجم الشعري والمعجم الديني يعززه وجود أسماء الأنبياء والمرسلين مثل محمد، عيسى، موسى، ،مريم... هذه الأسماء في تمظهرها لا تتخذ أنماطا معقدة، وإنما تأتي في شكل إحالة" إذ تحيل هذه الأسماء إلى مرجعيتها التراثية أو التاريخية وعند توظيفها في سياق النص الجديد فإنهالا تأتي فارغة من المعنى، وإنما لها معاني و دلالات رمزية مكثفة .

- إن التناص بين النص الشعري، والسور القرآنية، لم يحدث على مستوى اللفظ والمعنى أو الصورة الفنية فحسب، وإنما كذلك على مستوى الإيقاع الشعري إذ تستحيل الفاصلة القرآنية لسورة الزلزلة مثلا قافية شعرية، وهذا الشكل من التناص نجده في العديد من النماذج الشعرية وهو يكشف عن تمكن النص القرآني في نفسية الشاعروتقديسه له وقدرته على تمثله من خلال الإيقاع الشعري.

خلاصة القول:إن مفدي استفاد استفادة عظمى من القرآن الكريم، حتى أننا لا نكاد نجد قصيدة واحدة لم تتأثر بالمعنى واللفظ القرآني، فأثر القرآن الكريم ظاهر جلي في شعره، وأن هذا التأثر شمل المعاني و الألفاظ بصفة لافتة للنظر، ولعل براعة التوظيف لهما هو الذي أضفى على شعرية مفدي جمالية و خصوصية في الأسلوب و البناء الشعري.